

أشباه ابن تومرت

محمد بن شريفة

من القضايا التي شغلت الناس في زمن الموحدين نجد أربعاً بينها كان لها بروز واضح، وهي قضية الفقه المالكي أو فروع، وقضية الفلسفة والمشتغلين بها، وقضية التصوف والمتصوفة، وأخيراً قضية المهدوية والمتمهدين محور هذا الحديث.

وقد شكلت هذه القضايا ذات الطابع المذهبي في ذلك الزمن ما يشبه الأزمات العامة.

والقضية الأولى كانت فعلاً أزمة حقيقية في عهد الخليفة يوسف ابن عبد المومن وولده الخليفة يعقوب المنصور فقد جمعت كتب الفروع - وما كان أكثرها - وأحرقت في جميع البلاد وامتحان الفقهاء البارزون في الأندلس والمغرب وصدرت الأوامر بأن لا يتولى القضاء إلا المحدثون، وتسبب هذا كله في نشوب الفوضى في الحياة العامة ونشوء الخلل في خطة القضاء التي

كانت لها رسوم راسخة في الأندلس والمغرب وأصبح الحال كما يقول بعض المؤرخين : «لقد كان الذين استقضوا منهم (أي من المحدثين) عند الناس في حالة تقصير في قضائهم، وكانت أحكامهم سخنة عين وظهر ذلك عند العامة والخاصة إذ لا اطلاع لهم على جزئيات المسائل اطلاع أهل الفقه والفروع حتى كان منهم ممن له دين ربما يياطن بعض الفروعيين ويسأله عن مشكلات المسائل ويتخذة معينا في قضاياها».

ثم هدأت الفورة، وفشلت الفكرة واخفقت محاولة الخليفة يعقوب المنصور الذي كان قصده وقصد أبيه وجده «محو مذهب مالك وإزالته من المغرب. وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث». وهكذا عاد القضاء إلى القائمين على المدونة وغيرها من كتب الفروع التي كتبت من جديد من صدور الحفاظ الذين كانوا يشتغلون بها سرا ويؤلفون في الرد على ابن حزم شعار الحركة المذكورة.

وهذا الاضطراب في موقف الموحدين من المذهب المالكي وأهله حصل ما يشبهه في الفلسفة والمشتغلين بها، إذ يبدو أن بعض هؤلاء تقربوا من الدولة عند ظهورها وكتب أحدهم وهو أبو عبد الرحمن ابن طاهر المرسي مقالة قرر فيها بالبرهان العقلي صحة أمر المهدي ابن تومرت وقدمها إلى عبد المومن في مراکش وعاش بها إلى أن توفي سنة 574 هـ وقد كان هذا العالم الأمير قد «طالع العلوم القديمة فبرز فيها وصار إماما من أئمتها» كما يقول ابن الأبار في التكملة. والتفلسف في مقالاته واضح لكن التزلف أوضح منه. ووصل بعد هذا ابن طفيل وغيره من تلاميذ ابن باجة إلى البلاط ... وأصبح ابن طفيل بمثابة مستشار للخليفة يوسف بن عبد المومن، وإذا كان المرادي ومالك ابن وهيب

وابن باجة قد توصلوا إلى أمراء المرابطين متسترين ومتوسلين بالتنجيم والأدب والموسيقى غير مظهرين للفلسفة فإن الاشتغال بالفلسفة سيصبح في عهد الخليفة يوسف بن عبد المومن مسموحا به بل مشجعا عليه فقد أمر الخليفة يوسف، ابن رشد بتلخيص كتب أرسطو وتقريب مآخذها وتفسير أغراضها، فكانت هذه التلاخيص والشروح التي شرقت وغربت، وأصبحت الصدارة في عهد هذا الخليفة لابن طفيل وابن رشد وأصحابه وتلاميذه ثم تغير الأمر في عهد الخليفة يعقوب وصارت الغلبة لطبقة أخرى من الكتاب والقضاة كأبي عبد الله ابن عياش وأبي حفص بن عمر وأبي الحسن ابن جبير وغيرهم ممن كان لهم يد في محنة ابن رشد.

وقد ذكر المؤرخون في ذلك أسبابا مختلفة لهذه المحنة التي امتحن فيها ثلاثة من أعلام الفلسفة يومئذ هم أبو الوليد ابن رشد وأبو جعفر أحمد بن جرج وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأصولي.

ولعل أعداء ابن رشد وأصحابه اختاروا لتقديم عريضتهم مناسبة الاستعداد لغزوة الأرك (591 هـ) كي تجد قبولا في النفوس واستعدادا لدى الناس، وفي هذا السياق جاءت خطب القاضي أبي حفص ابن عمر ورسائل الكاتب ابن عياش وأشعار الكاتب ابن جبير وغيره.

ويبدو أن المحنة ترجع في أصلها إلى التحاسد والتنافس بين أعضاء مجلس المنصور بسبب الحظوة التي نالها المذكورون عند هذا الخليفة ووالده، ولعل مما يدل على ذلك أنهم ما لبثوا أن استرجعوا مكانتهم لدى الخليفة وعاد هو إلى مراجعتهم في المسائل الفلسفية، وكأن المؤرخ ابن غمر يعتذر عما كان من المنصور في حقهم ويظهر عطفه نحوهم إذ يقول :

«وعلى ما جرى عليهم من الخطب فما للملوك أن يأخذوا إلا بما ظهر، فاليهم تنتهي البراعة في جميع المعارف. وليس في زمانهم من هو بكمالهم ولا من نسج على منوالهم». لقد قال أبو عبد الله الأصولي البجائي وهو أحد الممتحنين المذكورين عندما استقضي عقب العفو عنه ببجاية : «والله ما تقلدتها رغبة فيها ولا تغبيطا بها ولكن تسجيلاً على مقلدها إياي بقبیح التناقض الذي لا يصدر عمن له مسكة عقل في توليه القضاء والفصل في الأحكام الشرعية بين الناس من صحت عنده زندقته واشتغاله بعلوم الأوائل.» ونجد شيئاً من مثل هذا التناقض في موقف الموحدين أيضاً من أهل التصوف، فقد كانوا في عهدهم الأول متشددين لا يغفلون أو يتغافلون عمن نظهر ويشتهر من هؤلاء، ولهذا أمر عبد المومن باحضار أبي يعزى من إركان لاختبار حاله، وأرغم أبو مدين في عهد يعقوب المنصور على الانتقال من بجاية إلى مراکش لمعرفة أمره فمات في الطريق ودفن بالعباد في تلمسان وأحضر إلى مراکش من المرية أبو اسحاق البلفيقي في دولة المستنصر بمراكش حيث مات غريباً. غير أن هذه الاحتياطات من شيوخ التصوف التي جاءت في أعقاب ثورة المريدين بالأندلس ونجاح دعوة ابن تومرت ما لبثت أن خفت وضعفت بعد نكبة العقاب وما تلاها من أزمات سياسية وفكرية ونفسية حركت التصوف ليس في الأوساط الشعبية والفئات الهامشية فحسب كما نرى في كتب التشوف والمستفاد والمقصد الشريف ودعامة اليقين وتحفة المغترب وغيرها من كتب المناقب، ولكننا نجد النزوع إلى التصوف أيضاً لدى بعض الخاصة والسادة من الموحدين كأبي عبد الواحد بن بوسط ابن عبد المومن الذي بويع ثم خلع، وأخيه عبد العزيز المعروف بالمنتظر، وآخرين ذكروا في دعامة اليقين للعزفي، ولم يكد القرن السابع الهجري ينتصف حتى غدا التصوف بقسميه السني والفلسفي سارياً في مختلف جهات الأندلس وبلاد المغرب، بل إن المغرب أصبح يصدره إلى المشرق.

وأصل بعد هذا إلى قضية المهدوية أو مدّعي الهداية في عصر الموحدين، ولن أخوض في موضوع المهدوية والمهدي ابن تومرت لأنني سأقتصر على ما يتصل مباشرة بعنوان الحديث وهو أشبه ابن تومرت أو المتشبهون به أو الذين كانوا من أنموذجه حسب عبارة الحافظ الذهبي وذلك أن ابن تومرت - الذي سبقته دعوات مهدوية في الأندلس والمغرب - أصبح بعد نجاحه أنموذجا لعدد ممن طمعوا في الوصول إلى الملك في المشرق والمغرب من طريق ادعاء المهدوية. ففي المشرق نجد الشاعر عمارة اليميني معاصر ابن تومرت يحرض شريكا له على القيام على صلاح الدين الأيوبي.

فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به	إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته	كما يقول الوري لحما على وضم
وقد سرى إلى أن أمسكت يده	من الكواكب بالأنفاس والكظم

كما أن مؤلف كتاب «آثار الأول في ترتيب الدول» في آخر القرن 7 هـ ساق مثال ابن تومرت دليلا على نجاح رجل الدين الداعية إذا أهمل الملك أمره، وقد ذكر قصته وختمها بقوله : «وملوك المغرب في هذا الأمر على غاية من الاحتراز من هذه الطائفة - يعني الذين يتظاهرون بالزهد - وإذا رأوا منهم من كان يصلح للركوب والجهاد اشتغلوا به» وقد أوضح هذه الحقيقة السياسية المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي في ترجمة أبي موسى الجزولي النحوي، فذكر أنه لما رجع من المشرق واستقر بمراكش على حال من الزهد والورع والتقشف وأقبل عليه الطلبة من كل حذب وصوب تخوف منه الموحدون، قال «وكان دأب عبد المومن وبنيه البحث عمن هذه حاله والكشف عن باطن أمره متخوفين ثورته وخروجه عليهم» ولم يهدأ لهم بال إلا بعد أن أهدوه رياضاً بأثاثه وجميع لوازمه وبهذا ضمنوا أنه أصبح في أيديهم.

ولعل المغامرين الذين ادعوا المهدوية في هذا العصر وعددهم يفوق العشر - فضلا عن الثوار الذين ذكرهم البيدق - كانوا يعرفون نقطة الضعف هذه عند الموحدين فقاموا بما قاموا به ولكنهم فشلوا جميعا إذ لم تكن لهم - حسب قانون ابن خلدون - عصبية كعصبية ابن تومرت، لأن جلهم كانوا ياتون من الأندلس وينزلون بقبائل لا نعرف ماذا كانت صلتهم بها.

لقد حاول مدعو المهدوية أن يجربوا حظهم في أول الأمر بالأندلس، ونعرف منهم اثنين كان أحدهما في شرق الأندلس وظهر الآخر في غربها، فأما الأول فهو أبو طالب عبد الجبار الملقب بالمتنبي وفيه يقول ابن بسام : كان - فيما بلغني - يعد نفسه بملك، وينخرط للمجون في سلك، لا يبالي أين وقع، ولا يحفل بأي شيء صنع، وقد أورد له أرجوزة تاريخية بدأها بقوله :

«يقول مهدي الوری المنتظر» ذم فيها ملوك الطوائف ومدح المرابطين
وقال إن خلع ذي الخلاعة «أي المعتمد كان أمرا واجبا، ولا نفهم لماذا حدثته نفسه بادعاء المهدوية إذا كان هذا هو رأيه. ومهما يكن فإن صورة هذا «المهدي» المتهور المستهتر بعيدة من صورة ابن تومرت، فقد كان في غاية الفقر كما يقول :

كيف البقاء بيت لا أنيس به ولا وطاء ولا ماء ولا فرش
كأنه كوة في حائط نقبت في ظلمة الليل يأوي جوفها حنش

ومع ذلك كان ينتاب الخمّارات المسيحية ويتهافت على المغنين في الحانات البلدية، وها هو يخاطب أحد المغنين بما يدل على سوء خلقه وحمقه :

هل لك أن تسمع مهديكم فتطرد الأشجان عن فكره
حتى إذا الأيام أبدت له ما في ضمير الدهر من سرّه
وصير التاج على رأسه وأقبل الوفد غلى قصره
أعطاك من جدواه ما تشتهي فضته البيضاء أو تبّره
ولا نظن أن هذا المهدي تجاوز القول إلى الفعل إذ لم تذكر له حركة وإن
كنا لا نعرف ما يقصد ابن بسّام بقوله : «استفرغ مجهوده في وصف صنت
الكتاب عن ذكره».

وأما الذي ادعى المهدوية بغرب الأندلس فهو أحمد بن الحسين المعروف
بابن قسي وقد استغل اختلال أمر المرابطين واستجلب المريدين بعد وفاة ابن
العريف وابن برجان «فادعى الهداية مخرقة وتمويها على العامة» كما يقول ابن
الأبّار. وقد أشار ابن الخطيب إلى بعض مخارقه ولم يحن من حركاته وتقلباته
إلا الخيبة لأن المهدوية التي توسل بها أصبحت - كما يقول ابن الخطيب
- «بضاعة القوم» ويعني بهم الموحدين.

وفي التاريخ الذي كان فيه هذا المدعي بغرب الأندلس كان مدع آخر في
جنوب المغرب هو المسمى في جل المصادر التاريخية محمد بن عبد الله ابن
هود المعروف بالماسّي - لأنه ادعى المهدوية في ماسة - وقد كاد هذا المدعي
الذي لا يعرف من أمره شيء سوى أنه كان قصارا في سلا وكان أبوه دلالاً في
السوق أن ينجح في إقامة دولة، ومع أن نواحي المغرب تبعته حتى لم يبق بأيدي
الموحدين إلا مراكش وفاس فإن الحوليات التاريخية، الباقية لم تذكر شيئاً عن
السر في قبول دعوته وانتشارها ولا على أي أساس قامت بل أن المصادر تختلف
في مجرد اسمه فالبيدق لا يذكره باسم المهدوي محمد بن عبد الله وإنما يسميه
عمر بن الخياط الملقب بـ بُويكّندي.

وانتقل بعد هذا إلى الكلام على أشخاص ادّعوا المهدوية والدولة في أوج عظمتها - وهم ثلاثة : أندلسيان ومغربي، وقد تحدث عنهم المؤرخون بشيء من التفصيل، وذكرهم الشعراء، وأول هؤلاء هو الجزيري الذي دوّخ الدولة في عهد المنصور وشغلها خلال سبع سنوات من سنة 579 هـ - إلى سنة 586 هـ. وقد روى ابن عذاري أخبار هذا المُتَمَهِّدي وسَمَّاه علي بن محمد بن رزين ولكن كتب التراجم - ومنها المغرب لابن سعيد والوافي للصفدي والنفع للمقري - ذكرته باسم محمد بن عبد الله، وهذا هو اسم المهدي المنتظر ولذلك تسمى به عدد ممن ادّعوا المهدوية، ومنهم ابن تومرت. ومهما يكن فإن هذا الأندلسي الذي كان بارعا في العلم والأدب ماهرا في الجدل والاقناع أراد «أن يحيي سنة مهدي المغرب ابن تومرت وزعم أن عبد المومن وبنيه غيروا سيرته» وقد نشر دعوته في المغرب والأندلس وفي مراكش وفاس وجهات الجزيرة الخضراء وكانت له قدرة كبيرة على التنقل والتخفي، وشاع أنه يتصور بصور الحيوانات المختلفة، ولم يقبض عليه الموحدون إلا صدفة بعد أن «جعلوا عليه العيون في جميع بلادهم».

وقد روى الصفدي قصة طريفة في كيفية القبض عليه، قال بعد أن ذكر تنقله بين عدد من الجهات في المغرب والأندلس : وصار إلى جهة بسطة فقعد في مسجد وأتاه أصحابه ببطيخ (دلاع) فجعلوا يأكلونه ويرمون قشوره في المسجد فقال لهم رجل كان هنالك : ما رأيتم أبعث منكم عن مروءة الدنيا والدين ! قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : أكلتم البطيخ وليس في المسجد غيري فلم تعرضوا علي فعلمت أنكم لؤماء ورأيتمكم ترمون قشور البطيخ في بيت الله فعلمت أنكم مستخفون بحرمته فتردد فكري في أن تكونوا جهالا أو زنادقة،

فقالوا له : لم يكن لك في الطعام نصيب فيلزمنا دعاؤك فأنت إذا طفيلي وبيت الله لعباده كلهم وقشور البطيخ طاهرة فأنت إذا فضولي، فعلا الكلام بينهم وكثر الصحب وأنكرتهم العامة فرفعوهم إلى الوالي فبينما الوالي يكشف أحوالهم إذ وصله كتاب بأن الجزيري وأصحابا له قد صاروا إلى جهتك فبث العيون عليهم واستقر مظان اختفائهم فلعل الله يظفرك بهم ويظهر منهم البلاد والعباد، فقال الوالي : الله أكبر هذه حاجة أمير المؤمنين، ثم قرأ : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ الآية...، وقال لهم : كيف رأيتم استخفافكم ببيت الله وسوء أدبكم معه ؟ - وأنفذهم فضربت أعناقهم.

وذكر ابن عذاري أنه سيق إلى اشبيلية وطيف فيها وأعلن أنه كذب فيما ادعاه ثم عذب وصلب وقد امتحن بسبب هذا المتمهدي عدد من الناس، منهم أحمد بن علي العبدري قاضي مالقة الذي أطلق الجزيري أو أخاه من السجن لقاء رشوة فضرب ألف سوط ثم صلب، كما حمل جماعة من أهل مالقة مكبلين إلى اشبيلية ومات أحدهم خوفا.

وقد أشار ابن عذاري إلى أن الشعراء هنؤوا المنصور بهذه المناسبة ومنهم أبو العباس الجراوي الذي يقول في هذا الجزيري وأصحابه :

جد الجزيري في إتلاف مهجته	حتى تورط في ورد بلا صدر
نار من الفتنة العمياء أطفأها	سعد الإمام وحد الصارم الذكر
ما زال إبليس في الأقطار يوقدها	وترتمي من شرار الخلق بالشرر
زاد الشقي على الخفاش مشبهه	ضعف البصيرة إذ ساواه في البصر
جاری إلى سقر أصحابه فهووا	فيها سراعا ووافاهم على الأثر

والأندلسي الثاني هو عبد الرحيم ابن الفرس، وهو سليل أسرة خزرجية غرناطية مشهورة انجبت عددا من الأدباء والعلماء، وكان هو واحدا منهم، وقد بدأت تحدثه نفسه بالرياسة والملك، وهو شاب صغير، انتقل من غرناطة إلى مراكش، ذكر ابن خلدون أنه كان من طبقة العلماء بالأندلس وحضر مجلس المنصور العلمي، فصدر منه كلام خاف عاقبته فاختلف مدة ثم ظهر بعد وفاة المنصور في بلاد جزولة (سوس ودرعة) وبلاد جزولة هذه كانت خلال هذا العصر منبع هؤلاء المتمهدين ومأواهم ويضيف ابن خلدون أنه «انتحل الامامة وادعى أنه القحطاني المراد في قوله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملأها عدلا كما ملئت جورا» وقد أجابه الجم الغفير ودعوه بالخليفة وحيوه بتحية الملك ثم أحاطت به جيوش الناصر الموحي وهو في جيش عظيم فهزم وقطع رأسه وعلق على أحد أبواب مراكش سنة 601 هـ وهو ابن 36 سنة.

وأما المغربي الذي ادعى المهذوية في هذا العهد فهو عبد الرحمن الجزولي المكنى بأبي قصبه، وقد كانت ثورته في جزولة قبل ابن الفرس سنة 597 هـ وقتل سنة 598 هـ بعد أن كسر جيوشا مؤحّدية، ومع أن حركته لم تدم إلا سنة واحدة لكنها كلفت الدولة الشيء الكثير، ولذلك عمّ الفرح بالقضاء على أبي قصبه ووجدنا صدى ذلك في الشعر الذي قيل بهذه المناسبة ومنه قول أحمد بن شكيل الصّدفي الشريشي.

من حربه وأزال السحر بالغلبة
فجملة الأمر أن الحقّ قد غلبه
عادت عليه لجاما تلکم القصبة
لما يقرب من نار الوغى حطبه

الله أطفأ ما أذكى أبو قصبه
فمن أراد سؤالا عن قضيته
لما استمر جماحا في ضلالته
كانت عصاه التي غرّ الأنام بها

ولعل الشاعر يشير في هذا البيت الأخير إلى عصا سحرية كان يستعملها، فقد ذكر أنه كان مولعا بالسحر.

إذا كنا قد رأينا ظهور مدعي الهداية في أول دولة الموحدين، وفي وسطها وعنفوانها، فإننا نجد عددا من هؤلاء يظهرن في آخرياتها، ومعظمهم كانوا من خارج المغرب، وفيهم ثلاثة قدموا من مصر وأرادوا إحياء دعوة العبيدين الفاطميين وادعوا أنهم من أبناء آخر الفاطميين وقد كانت أطراف المغرب في الجنوب غالبا أو الشمال أحيانا الجهات المقصودة لهؤلاء، ولما تحدث المراكشي في المعجب عن أحد هؤلاء فسر فشله بقوله : «ولم يزل ينتقل في قبائل البربر من موضع إلى موضع وفي ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة. وأوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان لا عشيرة له، ولا أصل بالبلاد يرجع إليه» وهذا قريب من مفهوم العصبية عند ابن خلدون.

وقد كان من هؤلاء المتمهدين فتیان صغار السن ظهر على أيديهم شيء من خوارق العادات فاحبواهم أو أولياؤهم أن يستغلوا ذلك في ادعاء المهدوية مثل الفتى ابن منظور الذي ظهر باشبيلية قبيل سقوطها وادعى أنه صاحب الوقت وأخذ وطلب. ومثل الفتى العثماني الذي روى لنا ابن عبد الملك في السفر الثامن قصة دعاويه ومحاكمته وإعدامه هو ووالده.

لقد وصفت في عنوان الحديث هؤلاء الذين ادعوا المهدوية بأشباه ابن تومرت لأن أنموذجه أغراهم بمحاولة تقليده، ولكنهم كما رأينا - أو حسب ما وصل إلينا من أخبارهم - لم تكن لهم مؤهلات ابن تومرت سواء في سيرته

الملتزمة أو في خططه المحكمة كما أننا لم نجد لهم تراثا عقديا (ايدولوجيا)
كما لابن تومرت وكل ما وصل إلينا من كلامهم أبيات يندرون بها عما كان
يدور في خلدتهم فمن ذلك قول الجزيري :

في أم رأسي سر	يبدو لكم بعد حين
لاطلبن مرادي	إن كان سعدي معيني
أولا فاكتب ممن	سعى لأظهار دين

وقول ابن الفرس :

قولوا لآبناء عبد المومن بن علي	تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعالمها	ومنتهى القول والغلاب للدول
الناس طوع عصاه وهو سائقهم	بالأمر والنهي نحو العلم والعمل
فبادروا أمره فالله ناصره	والله خاذل أهل الزيغ والميل

وقد كان ابن تومرت ينذر بمثل هذا في بدايته وذلك في قوله :

دعني ففي النفس أشياء مخبأة	لألبسن لها درعا وجلبابا
والله لو ظفرت نفسي ببغيتها	ماكنت عن ضرب أعناق الوري آبي
حتى أظهر ثوب الدين من دنس	وأوجب الحق للسادات إيجابا

لكنه لم يكتف بهذا بل خطط خططا وابتدع آراء وأفكارا وكون رجالا
وكان كما يقول الحافظ الذهبي «من فحول العالم رام أمرا فتم له» بخلاف
الآخرين الذين كانت حركاتهم فوضوية ففشلت بينما نجحت دعوة ابن تومرت
وبقي تأثيره - مهما اختلف الناس فيه - زمنا طويلا، وقد تحدث ابن خلدون في
المقدمة والعبر، والشاطبي في الاعتصام، وابن عاصم في جنة الرضى، واليوسفي
في المحاضرات، وغيرهم عن استمرار التيار التومرتي، ونجد هذا التيار أيضا في

كتاب رحلة الوافد للتسافتي الذي طبع أخيراً. فقد اهتم هذا المؤلف بتسجيل الأصداء التي كانت تردد عن الإمام في تينمل وجهاتها خلال القرن الثاني عشر الهجري وقد رواها المؤلف المذكور عن شيوخ المنطقة الذين رووها عمّن قبلهم وظل الناس يتناقلونها بالسماع جيلاً بعد جيل.

ولعل خير ما أختتم به هذا الحديث كلام لابن خلدون ورد في آخر العنوان التالي : فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، قال بعد أن ذكر أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء : «ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء. أما المداواة إن كانوا من أهل الجنون وأما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هوجاً. وأما إذاعة السخرية منهم وعدّهم من جملة الصفاعين، وقد ينتسب بعضهم إلى الفاطمي المنتظر إمّا بأنه هو، أو بأنه داع له، وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ما هو وأكثر المتحليين بمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رياسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة الثامنة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التوبذري عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم أنه الفاطمي المنتظر تليسا على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وإن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهافت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدرس إليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي

من قتله في فراشه وكذلك خرج في غمارة أيضا لأول هذه المائة الثامنة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأرذلون من سفهاء تلك القبائل وغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لأربعين يوما من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الأولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما ان كان التلبس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن يبوء بإثمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه».